الدين والحياة

الاستاذ حامد محمود الزفزي

لقد أشرت إلى أن الثورة العربية اليوم بما أوتيت من قوة الأندفاع وسعة الأفق هى المكان الزمنى الذى يمكن أن يتم فيه تمدد القوى والطاقات الأفراد والجماعة والأفكار والمناهج ، ما دامت تعمل لصالح الإنسان وتحاول إسعاده . وترتبط بوجوده التاريخى والتكوينى من حيث الغاية والوسيلة . ومن حيث الملاءمة بين ظاهر الانسان النشاطى — الاجتماعى والاقتصادى والسياسى — الفردى والجماعى الإنسانى الراهن وبين باطنة الوجودى الذى يراه فى الفكرة والاعتقاد والتفلسف . ويزن به تصرفاته وآماله . ولنسمه الروح أو النفس أو القلب أو العقل أو الأنا الوجودى . ثم تضع فى الاعتبار كل ما يمكن أن يخطو بالإنسانية إلى التطور الصاعد والغايات المشتركة النبيلة .

وإذا كان الدين هو أقوى العوامل التوجيهية للحياة فى معترك الفردية والبشرية بما أودع فيه من عمومية التنظيم واصالته . ومجاراته للطبيعة وتقويمه لخطة سير الفطرة . فنحن بعد عرض الظروف والعوامل الراهنة لانكون خارجين عن المنهج السوى — على الأقل فى نظرنا — إذا رحنا نبسط معانى وأهداف وأساليب الدعوات القيادية المعاصرة بجانب أسلوب .. ومعانى وأهداف الدعوة الدينية . ومدى قدرتها وصلاحية أساليبها لتنظيم استجابة الإنسان للحياة . حيث أن الأصل فى إيجاده هو إتاحة الفرصة له للتمتع بالوجود الكلى دون مصادرة أو كبت .

وبمقدار ما يكون هناك من قوة الدفع للإنسان والاحاطة بجوانب نشاطه وبالتالى قيمة النتائج التى تحقق السعادة الوجودية للبشرية لأية دعوة تكون قيمتها أصالتها

التربوية . وأحقيتها فى الاتباع والسيطرة على صعيد التوجيه . ونحن فى هذا العرض ليس لنا رائد سوى الحق الذى نؤثره على أفلاطون .

وفى واقعنا الماثل اليوم للعالم نرى دول الاشتراكية فى درجاتها المتعددة معتدلة ومتطرفة او متوسطة تدين بالمادية الجدلية كعقيدة أساسية تنطلق من دائرتها وتدعو لأسلوبها ومبادئها . وهذا الجمع الكبير يضم روسيا والصين ومن لف لفهم . وقد ربطت هذه الشعوب عقيدة فلسفية واحدة قوامها الالحاد والإيمان بالاقتصاد وسيطرته على الحياة وسير التاريخ .

وفى أوربا الغربية وأمريكا ومن فى فلكهم تعيش هذه المجتمعات لا على عقيدة أو مبدأ سوى الحرية الفردية فى الاقتصاد. والديمقراطية الدستورية فى الحكم . والتحلل من العقائد الدينية الصحيحة . وإن ادعت أنها حامية المسيحية أحيانا . والمناهضة للمادية فى كثير من الحركات . وهى تمثل جزءاً كبيراً من أفراد العائلة البشرية .

وفى آسيا وإفريقية جماعات بوذية ووثنية ليس لها منهج أو خط تربوى فى حياة الفرد والجماعة فى إرادة الاصلاح أو اسعاد الانسان مرتكز على فلسفة فى العقيدة أو مبدأ فى الاقتصاد أو سلوك فى الدفاع عن قيم ومثل . ولكنها أشبه بالعزلة الفردية لتصفية النفس بأساليب عتيقة . ومناهج مريضة . هى ضرب من الرهبنة الأرضية المهزوزة .

ثم يأتى مركز الشعوب الاسلامية . وهى من التفكك السياسى . والعطل التوجيهى والضحالة فى مركز القيادة الملتزمة بمبدأ معتقدها وتنفيذ تعاليمه بما رأينا وأشرنا . بحيث تعتبر بالنسبة له بعيدة كل البعد عن مناهجه وأساليبه فى حياة الأفراد الاجتماعية وفى حياة الجماعات الاقتصادية والسياسية والتربوية وفى حياة البشرية فى البيان والدعوة إليه والكشف عن مدى قدرة الاسلام لمعالجة المواقف الانسانية وحل قضايا المدنية المعاصرة من استعمار وغيره فهى شعوب إسلامية بالوراثة والمستخرجات الرسمية ، وبعض الرسوم التعبدية كالصلاة العجفاء . والرموز الجوفاء . بل إنها ظل لحقيقة مسطورة فى القرآن الكريم ، وشبح لذكرى أمة حولت مجرى التاريخ الإنسانى وبنت الأجيال والأفكار والفلسفات وهم بهذا الحال بين الماديين والمتحللين واليهودية (الصهيونية الفاجرة) التى خطت مآربها وغايتها فى (برتوكول صهيون) مريدة خلق الانقسامات والحروب حتى يبيد العالم وتبقى هى كل شىء كما يقول الكتاب المذكور . وبين الوثنيين . الشعوب الاسلامية بين هذا وذلك أشبه بذبالة تلعب بها الرياح فى

ليلة عاصفة باردة ، إذا تداركها يد مصلح مخلص ومؤمن صادق وإنسان رحيم وزعيم جرىء أمكن أن ينفحها من زيتونة لا شرقية ولا غربية يضىء زيتها ويعم نورها وتضىء الطريق ويعشو إلى نارنا المدلجون ، وعند ذلك ينقلب الالحاد إيمانا ، والجحود اعتقادا ، والانحلال التزاما . والوثنية توحيدا وتنزيها وتنكب الأوهام وتتحطم الرموز وتكون الارواح بعد الأشباح والحقائق بعد الأوهام .

وليست الدعوة القرآنية بحاجة إلى حرب وطعان ، بقدر ما هى بحاجة إلى كشف وبيان . وعمل وإيمان . وما دام المصدر ماثلا بين أيدينا كما هو يوم أن قامت وتأسست دولة الدعوه الكبرى فما أجدرنا نحن القرآنيين أن نشمر عن ساعد الجد والحزم ونربط على قلوبنا ونقوم بواجبنا حيال عقيدتنا ومجتمعنا الإسلامى والبشرى إذ الحقيقة أن الدين التزام بمسئولية ، وحرية ديمقراطية ، وخطة تعاونية ، وحياة إشتراكية ، وهو يقوم عل أساس سيكلوجى وبيولوجى وروحى وإقتصادى . فهو يرسم الطريق السديد لكل اندفعات الانسان الروحية والجسدية والعقلية . والدين الذى هو منهج دعوات الرسل والأنبياء جميعا من لدن آدم حتى محمد عليهما السلام وإن اختلفت أشكاله وصوره فإنما كان ذلك ليوائم بين غايته وظروف الزمان والمرحلة التطورية للمجتمعات التى جاء ليصلحها . والدين إسلام القياد فى الحركات التنظيمية — فردية وجماعية — لرب العباد الذى خلقهم وهو عالم بما يصلح أمورهم .

وهو دين إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام . إن الدين عند الله الإسلام وهو بهذا المعنى له وجهان وتوجيهان . وجه وتوجيه داخلى وذاتى هو علاج روحى وتربية وجدانية وقيادة باطنية اشفاء القلب من الأوهام والوساوس . وصقل الذات وتصفيتها من الحقد والأنانية والاستعلاء وإستعباد الآخرين . أو قبول المهانة والذل والخنوع . وذلك يتمثل فى عقيدة التوحيد . توحيد الله الذى خلق الوجود بما فيه . وأنه وحده مرجع الأمر . وأنه لم يخلق الوجود عبثا . وإنما لحكمة وغاية . وهو وحده القائم دون بداية أو نهاية وما عداه كائن محكوم عليه بالمخلوقية ومتأثر بالزمان والمكان ، فلا طبيعة ولا وثن . ولا أوهام ولا أشباح لها آثار فى الإيجاد أو الإبداع . وبهذا التوحيد الخالص تصح عقيدة الإنسان ، ويكون منهج الروحية الصحيحة وطريق الرشاد .

شهد الله أنه لا إله الا هو . الله أحد . الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد .

ولقد تتبعنا دعوات الرسل فلم نعثر على حقيقة أروع ونقطة أهم وأولى من تخليص الناس من أدران الشرك وتسلط الملوك والقادة عليهم وإستعبادهم واستر قاقهم بالمال والرياسة والتفاضل بالأحساب والأنساب ثم ينسلون إلى هذا الزعم الزائف الذى صوره القرآن أروع تصوير . فى حجاج إبراهيم لنمروذ وهو يقول واهما . أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذى كفر . وارتدت نفسه الجامحة وظله الطاغى وإستعباده الآثم . وأدرك أنه أمام قوة الحجة الدامغة ، وفرعون القائل فى مصره عندما أستخف قومه فأطاعوه . أنا ربكم الأعلى ، ويلقمه موسى الرسول الحجر عندما يسأله اللعين فمن ربكما ياموسى . ؟ قالا ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وهكذا نجد أن أمر الرسالات يقوم أولا على الاعتراف الصادق والواقع المنطق . بوجود أكبر وأعظم . هو الخالق الأحد . عقيدة التوحيد . . وإذا كنا فى عصر الفضاء وظن الناس أنهم قادرون على أمر الحياة . فهل لنا أن نسألهم فى بساطة وسهولة عن شىء واحد ؟ . إذا كان العلماء قد عرفوا تركيب حبة الحنطة ومقادير كل مادة فيها . فإذا استطاعوا ان يقوموا بتركيب حبة فى المعمل بالمقادير والكيفيات التى جربوها . ثم . وضعوا تلك الحبة فى التربة وأنبتت إذن لآمنا بأن الطبيعية تتصرف دون يد الله . وسيقول السفهاء من الناس لسنا بحاجة إلى هذا العمل لأنه لا يجدى فى مجال الاقتصاد . ولكنى أقول ذلك فى مجال إقامة الحجة والبرهان . وإذا كانت معاملهم إنما تقوم بتحليل وتركيب وكشف وإختراع من مادة الحياة وخامة الوجود القائم الذى ليس من عمل الانسان فهل لهم أن يبدعوا ويضيفوا شيئا ما . أى شىء . ليس مما هو موجود . وعند ذلك نسلم لهم حقيقة بأن الانسان اله الأرض وأن المادية دينه وأن الالحاد شريعته . ولكنى أقول لهم مقدما . ياقوم لن تبدعوا ذبابا ولو اجتمعتم له . وان يسلبكم الذباب شيئا لن تستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب فى جانب الخالق العظيم . ويصبح بديهيا بعد ذلك أن الايمان بموجد مبدع هو أولى الخطوات . وهو حقيقة الاعتقاد الاسلامى . ومنهج الدين وهذا الاعتراف يصفى القلب ويقود الروح ويجلو النفس لتنطبع عليها الفضائل ويفاض عليها من الروح الوجودى العام ما يلهمها الصواب ويهديها إلى طريق الرشاد .

وإنما هذا الايمان التوحيدى استجابة أو تنظيم لاستجابة فطرية هى التطلع والتشوف وإجابة أو تنظيم إلى حالة التساؤل الذى يدور فى خلد الانسان وفى باطنه الادراكى

الذى يعيش فيه ويحس وجوده خلاله ، ولما كان الاعتراف بمبدأ أول وخالق يرجع إليه دافعاً غريزياً واتجاها طبيعيا . وكثير مايستغله الجبابره والطغاه أو يقوده الجهل أو الاحتكار والانانية الشريرة . فينطفىء نور الفطرة .

ولما كان الوجود أبدع لغاية . ومخلوق لحكمة . والانسان هو قمة الحياه ومأرب الخلق . لم يكن الله ليترك الفطرة للعواصف والأهواء . ولم يكن ليكلفه فوق طاقته . والناس فى الفطرة أمة واحدة . لذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين . ليشعلوا برسالاتهم شموع الفطرة المستعدة للحياة فى أدوار الوجود وانقلاباته السرمدية الكبرى . ؟

« يتبع »